أمن حركة الحج من المشرق الإسلامي إلى مكة المكرمة

خلال العصور العباسية المتأخرة (٤٨٥ – ٦٥٦هـ)

أ. د. عبد الرحمن بن علي السنيدي
قسم التاريخ – كلية العلوم الاجتماعية – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

يعد الحج إلى بيت الله الحرام ركناً من أركان الإسلام وشعيرة من شعائره العظيمة، ومن متطلباته الرحلة والتنقل والسير عبر طرق طويلة لمن بعدت ديارهم عن مكة، وذلك من خلال رحلة جماعية منظمة. والدارس لتاريخ الحج وأحوال طرقه الأمنية بوسعه أن يجد صفحات من تاريخ تلك الشعيرة العظيمة نعم فيها الحجاج الوافدون على بيت الله الحرام بالسكينة والأمان، وسارت قوافلهم نحو مكة والمدينة آمنة مطمئنة، ومن جانب آخر فثمة صفحات مأساوية أخل فيها بأمن حجاج بيت الله الحرام، وحفت بهم مخاوف ومخاطر أدت إلى إزهاق أرواح كثير منهم، واعتدي على قوافلهم وهي تسير نحو مكة، في تحدٍ لقيم الشريعة الإسلامية، وانتهاك لحرمة الأرواح المعصومة ومقاصد الشريعة الرامية إلى حفظ الدين والنفس والمال والعرض.

وإن حركة الحجاج صوب مكة بشكل قوافل من خلال الطرق والمعابر المنتشرة في العالم الإسلامي ظاهرة تاريخية جديرة بالدراسة والبحث لعوامل عدة؛ منها أنها تبين مدى متانة الأحوال الأمنية والحضارية عند المسلمين دولاً وشعوباً، كما أن مسيرة هذه الظاهرة التاريخية وأحداثها تعد شاهداً تاريخياً يكشف بجلاء مدى

قدرة المسلمين في العصور الوسيطة على التنظيم والإدارة. وهذه الدراسة التي بين أيدينا تبحث في أمن حركة الحج من المشرق الإسلامي إلى مكة المكرمة في العصور العباسية المتأخرة (٤٨٥ - ٦٥٦هـ)، وتتناول حركة الحج من المشرق الإسلامي من الزاوية الأمنية؛ نظراً لأهمية الأمن في مسيرة الحجاج، وبالنظر إلى أن الأمن (تحققاً وعدماً) من العوامل المؤثرة في حركة الحج نحو البيت الحرام، فتوافره مؤثر إيجابي يدفع المسلم إلى عقد العزم لأداء فريضة الحج وقصد مكة المكرمة. أما انعدام الأمن في طرق الحج وحلول المخاوف في منازل الحجاج، واضطراب الحالة الأمنية بمكة وما حولها فهو مما يؤثر سلباً في حركة الحج، ويؤدي في أحوالٍ كثيرة إلى توقف رحلات الحج وقوافل الحجيج أو قلتها.

أمن حركة الحج:

ينطلق مفهوم أمن حركة الحج كما تتبناه الدراسة من أن مفهوم الأمن ذو دلالاتٍ وأبعاد واسعة، وهذا المفهوم الشامل في نظر بعض الباحثين هو المعادل والمقابل لما يصطلح فقهاء المسلمين على تسميته "حفظ الكليات الخمس" (الدين والنفس والعقل والنسل والمال)، فهذه الكليات تستغرق جميع مفردات الأمن الإنساني، وتستوعب مختلف حقوقه ومصالحه[١]، ويذكر باحث آخر أن الأمن يشتمل على جوانب عدة، منها الأمن على الحياة والأموال، والأمن من غوائل الجوع والعطش، كما أن الأمن يشتمل على صيانة الأفكار والمعتقدات، واحترام حق الحياة، وصيانة الأنساب والأعراض، وحفظ الأموال والممتلكات[٢].

(١) انظر، نور الدين بن مختار الخادمي، الهندسة الوراثية والإخلال بالأمن، مجلة البحوث الأمنية، الرياض، مج ١٨، العدد ٢٤، ربيع الآخر ١٤٢٤هـ، ص١٨ - ١٩.

(٢) إبراهيم الجوير، دور الأمن في نهضة المجتمع من منظور علم الاجتماع وأحداث التاريخ، بحث منشور ضمن كتاب الأمن العام وأثره في بناء الحضارة، الرياض، المركز العربي للدراسات الأمنية، ١٤١٠هـ، ص١٧٢.

وانطلاقاً من هذا المفهوم ذي الطابع الشامل[٣] سوف تركز الدراسة في ما تعرض له الحجاج من عدوان وتهديد يمس أمنهم، ومن صور ذلك قطع الطرق عليهم والسلب والنهب والعدوان الذي استهدف قتل الأنفس البريئة والمعصومة عمدًا بهدف حيازة المال، أو من خلال فتن هوجاء ينعدم فيها الانضباط واستشعار مكانة هذه الفريضة العظيمة وحرمة دار النسك، كما سوف نتطرق إلى ما يمثل تهديداً للأمن الفكري، ذلك الأمن الذي من متطلباته استمرار حيوية الحركة العلمية في مكة والعالم الإسلامي، وانعدام نشاط الفرق في منازل الحجاج والموسم، و نشاط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بضوابطه الشرعية.

إطار البحث الزماني:

يناقش البحث أمن حركة الحج من المشرق الإسلامي حتى مكة المكرمة في العصور العباسية المتأخرة[٤]، وتحديداً من عام ٤٨٥هـ حتى عام ٦٥٦هـ، وخلال هذه الفترة الزمنية الواسعة حدثت أحداث كبيرة أثرت في حركة الحج وفي أمنها بشكل عام وفي أمن قوافل الحج المشرقية، حيث أخذت الدولة السلجوقية في التفكك والانقسام بعد وفاة سلطانها ملكشاه سنة ٤٨٥هـ. ومقتل الوزير نظام الملك في العام نفسه[٥]، فلم تعد تلك القوة الإسلامية الضاربة، واختفت الأهداف الإسلامية – ومنها إصلاح طريق الحج والجهاد – من خطط السلاطين الجدد المتقاتلين على الظفر بالحكم. وكذلك ضعفت الدولة الفاطمية ثم

(٣) للباحث دراسة عن "أمن حركة الحج من المشرق الإسلامي خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين"، وهي دراسة مقبولة للنشر في مجلة التاريخ العربي، وقد تطرقنا خلال هذا البحث إلى مفهوم الأمن ومدلولاته.

(٤) هناك آراء في موضوع تقسيم التاريخ العباسي إلى عصور أو حقب، وبغض النظر عن مدى عمق تلك التقسيمات، فقد أخذت الدراسة بمفهوم العصور المتأخرة مصطلحًا تندرج في إطاره مجموعة حقب وعهود عباسية سبقت سقوط الخلافة العباسية، ورأى الباحث أن تلك العصور تبدأ بعد وفاة ملكشاه واغتيال نظام الملك، وهو ما تم في شهري رمضان وشوال سنة ٤٨٥هـ.

(٥) ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، ١٣٨٦هـ، ١٠/ ٢٠٤، ٢١٠.

سقطت سنة ٥٦٧هـ بعد أن شهدت بعض مواسم الحج في القرن الخامس الهجري وما سبقه علو شأنهم وسيطرتهم على مكة والمدينة، لكن منذ عقد الثمانينيات من القرن الخامس الهجري وحتى نهاية عهد الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ كان النفوذ في صالح العباسيين والسلاجقة على الأغلب لانشغال الفاطميين بمشاكلهم الداخلية في مصر، خاصة الصراع على الوزارة والتصدي للفرنجة في بعض السنوات[٦].

كذلك شهدت هذه الفترة أحداثاً غير مألوفة في المشرق الإسلامي بأقاليمه المشهورة كخراسان وما وراء النهر وفارس وإقليم الجبال وغير ذلك من الأقاليم حيث نهضت دول جديدة كدولة الخوارزميين، وسقطت دول أخرى، أبرزها دولة سلاجقة المشرق في خراسان ثم العراق[٧]. كما أن المراكز الإسلامية الكبيرة كنيسابور تعرضت للخراب والدمار على يد الأتراك الغز وغيرهم، مما أضعفها، وقضى على طبقة الأعيان والفقهاء فيها، حيث أصبحت نيسابور بعد هجمات الغز قاعاً صفصفاً[٨]، ليأتي بعد ذلك المغول خلال العقد الثاني من القرن السابع الهجري، فيتعرض المشرق الإسلامي لخطر وثني كبير[٩] يمعن في العدوان، حتى يصل إلى أبواب بغداد، ويتم إسقاط الخلافة سنة ٦٥٦هـ[١٠]. وقبل الغزو المغولي الكاسح كان المشرق الإسلامي يعيش حالات صراع حادة بين الكيانات السياسية والزعماء الذين ورثوا حكم المملكة السلجوقية وسط انفلات أمني ومذابح دموية وفتن أدت إلى تراجع المسيرة الحضارية لجناح العالم الإسلامي المشرقي، وخراب كثير من المدن العامرة، وهجرة علمائه وفقهائه إلى الشام والحجاز.

(٦) سليمان الخرابشة، التنافس السلجوقي الفاطمي حول الحجاز وإمارة الحج، عمان، جامعة اليرموك، ١٩٩٩م، ص ٩.

(٧) انظر عبدالنعيم حسنين، سلاجقة إيران والعراق، ص١٢٨، ١٤٧.

(٨) ابن الأثير، الكامل، ١١/ ١٧٨، ١٨١، ٢٠١. على سبيل المثال.

(٩) فاروق عمر فوزي: تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية الإسلامية، ص٣٥٧.

(١٠) قتل السلطان خوارزمشاه (٥٩٦ - ٦١٧هـ) في سمرقند نحو (٢٠٠,٠٠٠) إنسان، ونهب البلد ٣ أيام. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٢/ ٢٦٩.

الحج من المشرق إلى مكة (إدارته - طرقه):

يطلق مصطلح المشرق الإسلامي على الأراضي والأقاليم الواقعة شرق إقليم الخلافة العباسية، وكان الحجاج من هذه الأقاليم يأتون إلى بغداد لينضموا إلى قوافل الحج التي ترعاها الخلافة العباسية. ومعهم علماؤهم وقضاتهم المصاحبون لهم[١١]، فينضم حجاج تلك الأقاليم إلى حجاج العراق، حيث تشكل بغداد محطة رئيسة للقوافل القادمة من مدن المشرق وبلداته. وقد كان للفقهاء والعلماء أثر كبير في تقوية اتجاه الناس نحو الحج، إضافة إلى أن فريضة الحج من أركان الإسلام الخمسة التي لا يصح إسلام العبد إلا بها، فيسبق تحرك الحجاج من مدن خراسان وما وراء النهر المناداة في تلك البلاد بالعزم على الحج، ويفهم مما يذكره الغزالي أن مما يشوق به إلى الحج ذكر الأناشيد والأشعار في وصف الكعبة المشرفة والمقام والحطيم وزمزم والمشاعر، مما يهيج الشوق إلى بيت الله الحرام، فقد ذكر أنهم يدورون في البلاد بأشعار نظمت في وصف الكعبة والمقام والحطيم وزمزم وسائر المشاعر، وإثر ذلك يهيج شوق الناس إلى حج بيت الله الحرام[١٢].

وفي الأحوال المألوفة يفد من المشرق حجاج كثيرون، ويقدر القاضي الفاضل (ت٥٩٦هـ)[١٣] عدد الحجاج المشارقة في أيام صلاح الدين الأيوبي بمئتي ألف أو ثلاثمئة ألف[١٤]، كما ورد في بعض المصادر الإشارة إلى أن عدد حملة أشرفت عليها إحدى الدول

(١١) بدري محمد فهد، تاريخ أمراء الحج، مجلة المورد، مج٩، العدد (٤)، ١٩٨١م، العراق، ص١٧٩، ٢١٠.

(١٢) أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، إحياء علوم الدين ٢/ ٢٧٦، وقد ذكر أنه إذا كانت الطرق غير آمنة، وكان الهلاك غالباً لم يجز تحريك القلوب ومعالجتها بالتشويق.

(١٣) حج القاضي الفاضل سنة ٥٧٥هـ. ابن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ٥٤٣/٢.

(١٤) أبو شامة شهاب الدين المقدسي (ت٦٦٥هـ)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق إبراهيم الزيبق. بيروت، مؤسسة الرسالة، ٣٣٣/٤.

الإسلامية المشرقية في أوائل القرن الخامس الهجري قد بلغ (٢٠٠,٠٠٠) إنسان، معهم (٦٠,٠٠٠) جمل[١٥]. ويذكر ابن جبير وقد سار مع الركب المشرقي بعد موسم ٥٧٩هـ أن مع الأمير (أبي المكارم طاشتكين) من حجاج المشرق جمع لا يحصي عدده إلا الله يغص بهم البسيط الأفيح[١٦]. وتضم تلك الأعداد حراساً وموظفين وجنودًا تابعين لأمير الحج، كما تضم بعض الأسر مصحوبة بنسائها وأطفالها وأسر من نسوة وأطفال، فالحاج إلى مكة يخرج في بعض الحالات ومعه زوجته وأطفاله[١٧].

مع الأمير جمع لا يحصي عدده إلا الله يغص بهم البسيط الأفيح

تولى الإشراف على حملة الحج أمراء يعينهم في الغالب الخلفاء العباسيون، وتولت الخلافة توفير متطلبات القوافل، وهو ما تكرس خلال القرن السادس الهجري في ظل الأوضاع الأمنية والسياسية المتدهورة في المشرق، وعدم اكتراث الدول والكيانات المتنافسة بشأن الحج في ذلك الزمان، بعكس ما كان متبعاً في القرن الخامس الهجري أيام السلطان محمود وابنه والسلطان مسعود في العهد الغزنوي[١٨] وأيام السلطان ألب أرسلان وملكشاه[١٩] في عصر وحدة الدولة السلجوقية، ولئن كان الإشراف على حملات الحج في كثير

(١٥) ابن فهد، إتحاف الورى، /٤٥٢٢.

(١٦) رحلة ابن جبير، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، بيروت، دار صادر، ١٣٨٤هـ، ص١٦٣.

(١٧) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عطا ومصطفى عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ، ١٨/ ٧٦.

(١٨) ابن الأثير، الكامل، ٣٢٥/٩، أبو الفضل البيهقي، تاريخ البيهقي، ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت، القاهرة، ١٩٨٢م، ص٣٧٨.

(١٩) تقي الدين الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، بيروت، دار الكتب العربي، ١٤٠٥هـ، ٣٦١/٢-٣٦٢. الرواندي محمد بن علي، راحة الصدور وآية السرور في أخبار الدولة السلجوقية، ترجمة إبراهيم الشواربي وآخرون، المجلس الأعلى لرعاية الفنون، القاهرة ١٩٥٩م، ص٢٠٥.

من سني القرنين الرابع والخامس الهجريين موكولاً إلى إحدى الشخصيات ذات المكانة الاجتماعية والدينية، مثل الأشراف العلويين، فإن مما أخذت به الخلافة العباسية - وتكرس هذا في القرن السادس الهجري - إسناد هذه الوظيفة إلى أمراء عسكريين من مماليك الخلافة من الأتراك وغيرهم؛ ربما لقدراتهم العسكرية، ولكونهم مؤهلين لأداء المهام الأمنية المناطة بأمير الحاج[٢٠]، ومواجهة الشدائد والتحديات التي تلاقيها حملات الحج، ذلك أن حركة الحج بصفتها حركة انتقال بشري عبر أمكنة ومواضع كثيرة تحتاج إلى قيادة مهابة خبيرة بأساليب المحافظة على أمن الحجاج، وعلى دراية بكيفية التعامل مع فئات متمردة جشعة لا يحد من طمعها إلا السيف وهيبة القيادة، ويلحظ شمول مهمة أمير الحج مسؤوليته عن جميع حجاج الأقاليم المشرقية؛ فإن من يتولى إمارة الحج العراقي لا يعد مشرفاً على حجاج العراق وحده، بل وعلى الحجاج القادمين من خراسان وما وراء النهر وغيرها من الأقاليم.

وممن تولى إمارة الحج في مرحلة الدراسة:

- الأمير يمن الخادم المستظهري سنتي ٥٠٨، ٥٠٩هـ[٢١].

- نظر الخادم بن عبدالله الجيوشي (ت ٥٤٤هـ)، وصفه ابن الأثير بأنه عاقل خير له صدقات وافرة - وقد حج معه ابن الجوزي حجته الأولى سنة ٥٤١هـ - حج (٢٧) مرة كان في نيف وعشرين منها أميراً[٢٢].

(٢٠) عن الواجبات المناطة بأمير الحج، انظر، الماوردي، الأحكام السلطانية، بيروت، ١٤٠٢هـ، ص ١٠٨ - ١٠٩.

(٢١) ابن فهد، إتحاف الورى، ٢/ ٤٩٤، ابن كثير، البداية والنهاية، تحقيق عبدالله التركي، القاهرة، دار هجر، ١٤١٨هـ، ١٦/ ٢٣٥.

(٢٢) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٨/ ١٧٦، ابن الأثير، الكامل، ١١/ ١٤٦، يلحظ أنه يرد اسمه في إتحاف الورى، تحقيق فهيم شلتوت (قطز الخادم)، وهو تصحيف، فابن الجوزي وابن الأثير مؤرخان عراقيان، وقد عاصر ابن الجوزي ذلك الأمير وحج معه.

- قايماز الأرجواني (٥٤٠ - ٥٥٤هـ)[٢٣].
- أرغش التركي (٥٥٥ - ٥٦٥هـ)[٢٤].

- طاشتكين بن عبدالله الأمير مجير الدين جاء في بعض المصادر أنه حج بالناس (٢٦) حجة عرف بدوره السياسي الكبير في مكة أثناء الحج حتى قيل: إنه يكون في الحجاز كأنه ملك، حيث يعزل الأمراء الأشراف ويعينهم، توفي سنة ٦٠٢هـ أثنى على قيادته وإدارته بعض المؤرخين وغيرهم، ولقد عاد ابن جبير من موسم الحج سنة ٥٧٩هـ بصحبة القافلة العراقية العائدة بإدارة طاشتكين، ومما ذكر عنه أنه تولى خطة الحج من قبل الخلافة العباسية قبل (٨) سنوات أو أزيد، وقد وصفه بحسن السيرة والنظر، والرفق بالحجاج والاحتياط عليهم والاحتراس لمقدمتهم وساقتهم، وأوصى حاج المغرب أن يعود مع أمير الحاج العراقي فيتوجه إلى بغداد ثم الشام فعكا (وكانت بيد الصليبيين) ثم الإسكندرية أو صقلية[٢٥]، كذلك أثنى عليه ابن الأثير، وقد حج معه ووصفه بالعدل والرفق[٢٦].

وقد ضعف شأن إمارة الحج بعد الأمير طاشتكين، وتولى هذه المسؤولية من هو غير جدير بها، وظهر من بعضهم قلة اكتراث، وعدم اهتمام بمسؤوليته تجاه الحجاج، لدرجة أن بعضهم فارق الحجاج وهرب إلى الشام أو مصر، فعل هذا سنة ٦٠٣هـ مظفر الدين سنجر مملوك الخليفة الناصر المعروف بوجه السبع، حيث فارق الحجاج بموضع المرجوم واتجه نحو الشام[٢٧]. وسار الحجاج سالمين، أما

(٢٣) توفي قايماز الأرجواني سنة ٥٥٥هـ، سقط عن الفرس وهو يلعب بالأكره فمات، ابن الأثير، الكامل ١١/ ٢٦٤.

(٢٤) ابن الأثير، الكامل، ١١/ ٢٧٦، ٢٧٩. وفي بعض المصادر برغش، انظر إتحاف الورى، ٢/ ٥٢٣.

(٢٥) رحلة ابن جبير، ص ٤٨، ١٦١، ١٩١.

(٢٦) ابن الأثير، الكامل، ١١/ ٣٦٧، ١٢، ٩٣، ٢٤١.

(٢٧) ابن الأثير، الكامل، ١٢/ ٤٤٨، والمرجوم تضاف إليه بركة وهو موضع ينزل الحاج العراقي فيه بعد الثعلبية في طريق العودة وقبل الشقوق، ابن جبير، رحلته، ص١٨٤.

مظفر الدين سنجر، فانتقل إلى مصر فترة، وأقام عند الملك العادل، ثم عاد إلى بغداد بعد مدة[٢٨]، وكذلك هرب أمير الحج العراقي حسام الدين أبو فراس الحلي الكردي الوراني، وفاروق الحاج من مكة والمدينة، وسار إلى مصر، حمله على ذلك قلة المعونة من الخليفة والضائقة الاقتصادية، ولما فارق الحجاج خافوا خوفاً شديداً، فأمن الله خوفهم، ولم يذعرهم ذاعر في الطريق، ودخلوا آمنين[٢٩]، وانحط شأن أمراء الحج المرسلين من قبل الخلافة العباسية عند الأشراف المكيين لدرجة أن أحد هؤلاء الأمراء قتل في موسم الحج أيام منى في غمرة الصراع بين ولدي الشريف قتادة حسن وراجح، حيث قتل الأمير أقباش الناصري سنة ٦١٧هـ، وقيل: سنة ٦١٨هـ، وحمل رأسه، ونصب بالمسعى[٣٠].

ومع استيلاء المغول على معظم أقاليم المشرق ووصولهم حتى تخوم الخلافة العباسية تقلصت حركة الحج من المشرق وفي بعض الأعوام كما في سنتي ٦١٧، ٦١٨هـ لم يحج أحد من العجم بسبب سيطرة التتار، وللخوف من قطاع الطرق، وانتشار الجند المغول في سبل الناس[٣١].

وفي معظم سنوات عقد الأربعينيات من القرن السابع الهجري ابتداء من سنة ٦٣٣هـ إلى سنة٦٤٠هـ لم يحج العراقيون، حتى إنه في سنة ٦٣٤هـ جمع الخليفة المستنصر العلماء، فسألهم في ترك الحج للجهاد، فأفتوه بذلك[٣٢]. ثم أرسلت حملة حج من بغداد بعد انقطاع سنة ٦٤٠هـ، وأرسل من يمضي إلى الآبار التي في طريق مكة لإصلاحها وتنقيتها،

(٢٨) ابن الأثير، الكامل، ١٢/ ٢٥٨.

(٢٩) ابن الأثير، المصدر نفسه، ١٢/ ٤٤٨ (حوادث ٦٢٢هـ)، ابن فهد، إتحاف الورى، ٣/ ٤٠.

(٣٠) ابن فهد، إتحاف الورى، ٢/ ٢٩، الفاسي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ، ٥/ ٣٢٣.

(٣١) ابن فهد، إتحاف الورى، ٣/ ٣١ - ٣٢.

(٣٢) ابن فهد، إتحاف الورى، ٣/ ٥٢.

وكانت قافلة كبيرة[٣٣]، ثم حدث انقطاع وعدم انتظام في خروج القوافل العراقية. ويرجع ذلك إلى شعور الخلافة بالتهديدات الموجهة إليها من قبل المغول والمخاوف التي يثيرها نشاطهم بالقرب من إقليمها مع الهلع والرعب الذي غلب على سكان العراق والمشرق جراء هذا الخطر الكبير، ويمكن القول بأن الأوضاع السياسية في المشرق الإسلامي والعراق العباسي وطبيعة العلاقات بين مختلف القوى الممسكة بزمام النفوذ في المشرق والعراق، والأوضاع الأمنية المضطربة في البلاد المشرقية عامة تركت أثرها في حركة الحج خاصة بعد انحلال الدولة السلجوقية وزوال نفوذها، ولقد كانت حملة الحج المشرقية - بما تضمه من أئمة وعلماء وقادة وأعيان لهم إسهام في الأعمال الخيرية - ذات تأثير كبير على الأوضاع في الحرمين ليس في الجانب السياسي وحده بل وفي الجوانب العلمية والثقافية، حيث حج عدد من كبار العلماء بصحبة قوافل الحج المشرقية، ومن هؤلاء ابن عقيل الحنبلي (ت ٥١٣هـ)[٣٤]، وابن الجوزي الذي حج في سنتي ٥٤١، ٥٥٣هـ[٣٥]، وأبو سعد السمعاني (ت ٥٦٢)[٣٦]، وأحمد بن محمد البغدادي (ت٥٤٠هـ) الذي حج (١١) حجة آخرها سنة ٥٣٩هـ[٣٧]، والمؤرخ ابن الأثير علي بن محمد الشيباني (ت٦٣٠هـ)[٣٨].

(٣٣) مؤلف من القرن الثامن الهجري، كتاب الحوادث تحقيق بشار عواد معروف وعماد عبدالسلام رؤوف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ص٢٠٢، ويرى المحققان أن نسبة هذا الكتاب إلى ابن الفوطي (ت ٧٢٣هـ) كما ظهر في طبعات سابقة غير صحيحة، وأشارا إلى أن محققه في تلك الطبعة السابقة - مصطفى جواد - تراجع عن ذلك فيما بعد، المقدمة، ص٩.

(٣٤) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٦/ ١٤٦، وابن عقيل، هو شيخ الحنابلة في بغداد صاحب الفنون وغيرها، توفي وقد جاوز عمره الثمانين، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٦/ ٢٤٢.

(٣٥) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٨/ ٧٦، ١٢٦.

(٣٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ، ٢/ ٢٥٦.

(٣٧) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٨/ ٤٥.

(٣٨) انظر، ابن الأثير، الكامل، ١٢/ ١٣١، حيث أشار إلى عودته من مكة مع الحجاج وسماعه ببغداد من العالم يعيش بن صدقة، كما ذكر ما يفهم منه أنه زار المدينة سنة ٥٧٦هـ، المصدر نفسه، ١١/ ١٤٩.

وممن حج إلى مكة من أعيان المشرق رامشت بن الحسين الفارسي (ت ٥٣٤هـ) من أعيان تجار العجم وخيارهم[٣٩]، لقد خرج إلى مكة أعداد كبيرة من العلماء للحج والمجاورة بالبلد الحرام، فأسهموا بذلك في إنعاش الحركة العلمية وإيجاد أجواء داعمة للمذاهب الإسلامية المعروفة بوسطيتها واعتدالها، كما أسهم وجودهم في مقاومة الممارسات المخلة بالأمن الفكري للحجاج، وحد من تعرضهم للتضليل والفتنة، وقد ذكر ابن الجوزي أنه تكلم بالحرم نوبتين[٤٠]، وساءه ما شاهده من قلة احترام المكان من قبل بعض الفئات وسلب الأموال وأخذ المكوس[٤١]، وتطرق ابن جبير في رحلته إلى ما كان يلقيه بعض الوعاظ الخراسانيين المشارقة من بيان فصيح بارع الألفاظ يجمع فيه بين اللسانين العربي والأعجمي، وأشار إلى وعظ رئيس الشافعية صدر الدين الأصبهاني في حج سنة ٥٧٩هـ[٤٢]، إن وجود العلماء المعروفين بعمق ثقافتهم وتمثلهم الرفيع لقيم الإسلام واتصالهم بينابيعه الصافية معين على تهيئة السكينة والهدوء في الموسم، ومقاومة ما يخل بالأمن الفكري للحجاج.

ويسلك حجاج المشرق في حركتهم نحو بيت الله الحرام ومدينة رسوله الكريم ﷺ طريقي الكوفة والبصرة، فأما طريق الكوفة فهو الطريق الرسمي الذي تسلكه قوافل الحج المشرقية وهو يخترق شمالي نجد، حيث يمر بعدة منازل ومحطات مهيأة لخدمة الحجاج ومنها زبالة والأجفر وزرود وفيد (وبها عمال طريق مكة من قبل الخلافة)[٤٣]،

(٣٩) الفاسي، العقد الثمين، ٥/ ٣٨٥.

(٤٠) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٨/ ١٢٦.

(٤١) ابن فهد، إتحاف الورى، ٢/ ٥٢٠، وانظر رأي ابن الجوزي في بعض أمراء الحج وما يأخذ به الناس، المنتظم، ١٨/ ٧٦.

(٤٢) رحلة ابن جبير، ١٥٩، ١٧٧.

(٤٣) أبو عبدالله البشاري المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، بيروت، دار إحياء التراث، ص١٠٠، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) البلدان، المكتبة المرتضوية، ص٧٦، سعد الراشد، درب زبيدة طريق الحج من الكوفة =

وقد زودت محطات الطريق بمنازل ومصانع كالصهاريج العظام تحفظ مياه المطر للحجاج، وقد قطعت قافلة الحج المشرقية الطريق بين المدينة والكوفة عام ٥٧٩هـ في (٢٠) يوماً[٤٤]، وكما جاء في بعض المصادر أن طاشتكين أمير الحج سار بقافلته من الكوفة إلى عرفات في (١٨) يوماً سنة ٥٧٠هـ[٤٥]. أما طريق الحج البصري فهو الذي يسير عبره حجاج جنوب العراق وإيران، وهو يبدأ من البصرة، ثم ينطلق نحو شمالي شرق الجزيرة عبر وادي الباطن مخترقاً مناطق صحراوية أصعبها صحراء الدهناء المتسعة، ثم يمر بمنطقة القصيم، حيث تكثر فيها المياه العذبة والوديان الخصيبة[٤٦]. ويبدو أن الإشراف على هذا الطريق موكول إلى ولاة البصرة قبل تدهور أحوال الخلافة العباسية، وقد سلك الرشيد طريق البصرة عند عودته من إحدى حجاته[٤٧]؛ مما يدل على أهميته بجانب الطريق الرسمي، والأخبار عنه قليلة في العصور المتأخرة، وهو بدوره عرضة لقطاع الطرق واللصوص، كما سلكه البغداديون سنة ٦٤٨هـ[٤٨]، لانقطاع قافلة الحج من الكوفة. وقد تسلك فئات أخرى قليلة من الحجاج المشارقة الطريق البحري من خلال الخليج العربي وبحر عمان ثم بحر العرب ثم البحر الأحمر

= إلى مكة المكرمة، دراسة تاريخية وحضارية أثرية، ص٣١. وأشير هنا إلى أن من الدراسات التي تناولت أحوال طريق الحج العراقي بالإضافة إلى دراسة الدكتور الراشد، دراسة صالح الناصر الوشمي - يرحمه الله - وهي بعنوان: الآثار الاجتماعية والاقتصادية لطريق الحج العراقي على منطقة القصيم.

(٤٤) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٨١، ١٨٧.

(٤٥) ابن فهد، إتحاف الورى، ٢/ ٥٣٥.

(٤٦) سعد الراشد، درب زبيدة، ٣١، صالح العلي، طريق الحج العراقي القديم، مجلة العرب، ج ٢١ س١، رجب ١٣٩٢هـ، ص١٩٢.

(٤٧) تقي الدين المقريزي، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، بورسعيد، مكتبة الثقافة، ١٤٢٠هـ، ص٨٠، وقد حج الرشيد (٩) حجات أثناء خلافته، ولم يحج بعده خليفة من بغداد وكان إذا حج حج معه (١٠٠) من الفقهاء وأبنائهم، المصدر نفسه، ص٧٨ - ٨٠.

(٤٨) مؤلف مجهول، الحوادث، ص ٢٩٧، وانظر على سبيل المثال، ابن فهد، إتحاف الورى، ٢/ ٤٥٦.

كما حدث لبعض حجاج خراسان في بعض السنوات، وكما حدث للفقيه محمد بن عبدالباقي البغدادي (ت ٥٣٥هـ) الذي جاء في ترجمته أنه ركب البحر بعد خروجه من مكة[٤٩]، وكذلك أبو المعالي البراني (ت ٥٢٤هـ) حيث ركب البحر في طريق عودته من مكة[٥٠].

تعرض أمن الحجاج للتهديد والعدوان:

تعد شعيرة الحج من العبادات التي تتطلب التنقل والحركة، والانتقال من الموطن إلى دار النسك وقبلة الخلق، ثم التنقل بين المشاعر والمسجد الحرام وأمكنة العبادة والزيارة. والحركة والتنقل بهذا الشكل يتطلب ظروفاً أمنية جيدة، ويحتاج إلى زوال معوقات أداء العبادة على الكيفية التي سنها رسول الله ﷺ وعلمها أمته في حجة الوداع، وفي مقدمة تلك المعوقات انعدام الأمن والأمان.

ومع وجود صور إيجابية عامة توافر فيها الأمن للحجاج، نتيجة الإدارة الجيدة لمسيرة مواكب الحج، والأعمال الخيرية التي لبت جزءًا من احتياجات الحجاج الأمنية التي قام بها محسنون، مثل: الوزير الجواد الأصبهاني (ت ٥٥٩هـ)[٥١]، إلى جانب توافر الأغذية والمياه في مكة وطريق الحج نحو العراق[٥٢] إلا أنه وفي سنوات متفاوتة برزت أمام الحجاج بشكل عام مخاطرة كثيرة وفتن أذهبت أرواح كثير من العباد مرتادي البيت العتيق الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا[٥٣]، ومكاناً ينبغي أن يكون محفوفاً بالسكينة والأمان؛

(٤٩) ابن رجب الحنبلي، الذيل على طبقات الحنابلة، بيروت، دار المعرفة، ١/ ١٩٧، وانظر، ابن الأثير، الكامل، ٩/ ٣٧٠.

(٥٠) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٦١/١٧.

(٥١) محمد بن علي الأصبهاني الجواد وزير صاحب الموصل عرف بكثرة صدقاته وآثاره الحسنة بمكة والمدينة، ومن ذلك أنه ساق عيناً إلى عرفات وبنى هناك مصانع لحفظ المياه. ابن كثير، البداية والنهاية، ١٦/ ٤١١ - ٤١٢.

(٥٢) انظر، ابن جبير، رحلته، ص٩٦ - ١٠٠، ١٠٢، ١٠٨.

(٥٣) مقتبس من الآية ١٢٥، سورة البقرة.

فتعرض قاصدو بيت الله العتيق لمخاطر الطريق وما يصحب ذلك من الإخافة وإزهاق النفوس وسلب الأموال إلى جانب فتن الموسم التي تمثل إخلالا بحرمة المكان وشرف العبادة ومتطلباتها، وكل ذلك يمثل اعتداء على مقاصد الشريعة التي جاءت بحفظ النفوس والأعراض والأموال والعقول، إن المخاطر والتهديدات التي واجهها الحاج لم يقتصر مجالها على الطرق والدروب؛ بل شملت مجال تلك المخاطر مكة ذاتها جراء الفتن والقلاقل التي حصدت الأرواح وأهلكت الأموال، ولقد واجه الحجاج أشكالاً من التهديد التي تمس أمنهم بجميع جوانبه ويمكن تقسيم تلك التهديدات إلى النواحي الآتية:

١ - جرائم قطع الطريق.

٢ - الفتن والاضطرابات في مكة أثناء موسم الحج.

٣ - تعرض الحجاج لنقص المياه والأزمات الغذائية.

٤ - تهديد الأمنين العقدي والفكري للحجاج.

٥ - مخاطر أخرى على أمن الحجاج.

جرائم قطع الطريق:

تعد جرائم قطع الطريق من الجرائم النكراء التي تحمل في طياتها مجموعة من الجرائم وصور الإخلال بالأمن، ومن ذلك ما قد يصاحبها في أحوال كثيرة من قتل النفوس التي حرم الله قتلها، وأخذ الأموال وسرقتها، وإخافة أبناء السبيل، وتوجيه السيف إلى حملة الإسلام وقاصدي بيت الله الحرام. وتمدنا المصادر التاريخية المعنية بتاريخ مكة والحجاز، إضافة إلى المصادر التاريخية الأخرى بمعلومات وأخبار غير قليلة عن تعرض الحجاج المشارقة والعراقيين لجرائم قطع الطريق سواء وهم ما يزالون في طريقهم إلى بغداد أو هم في طريقهم إلى الحج عبر البوادي العراقية أو النجدية كما تعرض لهم بين مكة والمدينة، وقد جاءت تلك الجرائم في صورة أعمال منظمة تقوم بها جماعات أعجمية أو قبائل ألفت هذا النمط من الاعتداء.

فمن الجرائم التي ارتكبت ضد الحجاج الخراسانيين قبل وصولهم إلى بغداد أنهم لما رحلوا عن بسطام أغار عليهم جمع من الجند الخراسانية قصدوا طبرستان سنة ٥٥٢هـ، فأخذوا من أمتعتهم، وقتلوا نفراً منهم وسلم الباقون، وساروا من موضعهم، فبينما هم سائرون إذ طلع عليهم الإسماعيليون، فقاتلهم الحجاج قتالاً عظيماً وصبروا صبراً عظيماً؛ فقتل أميرهم، فانخذلوا وألقوا بأيديهم، واستسلموا وطلبوا الأمان، وألقوا أسلحتهم مستأمنين، فأخذهم الإسماعيليون، وقتلوهم، ولم يبق منهم إلا شرذمة يسيرة، وقتل منهم الأئمة والعلماء والزهاد والصالحون وجمع كثير، وكانت مصيبة عظيمة عمت بلاد الإسلام وخصت خراسان، ولم يبق بلد إلا وفيه مأتم. فلما كان من الغد طاف شيخ في القتلى والجرحى ينادي: يا مسلمون يا حجاج، ذهب الملاحدة وأنا رجل مسلم، فمن أراد الماء سقيته، فمن كلمه قتله، وأجهز عليه، فهلكوا جميعاً إلا من سلم، وولى هارباً، وقليل ما هم(٥٤).

وهكذا حلت كارثة جديدة بخراسان ذات العطاء الكبير في المجال العلمي والثقافي تضاف إلى الكوارث السابقة التي أصيبت بها بعض مدنها وتحديدا نيسابور عام ٤٤٨هـ، حيث نهبت على يد الأتراك الغز، وقتل علماؤها(٥٥) وصلحاؤها.

(٥٤) ابن الأثير. الكامل في التاريخ، ١١/ ٢٢٥، كذلك تعرض الحجاج لأذى جماعات عبدالملك بن محمد بن عطاء وكان له قلاع، فأفسد في بلاد حلون سنة ٥٦٥هـ، فأرسل له عسكرًا من بغداد، فنازلوه في قلاعه. حتى أذعن بالطاعة، وأخذ عليه ألا يؤذي الحجاج ولا غيرهم. المصدر نفسه، ١١/ ٣٥٩.

(٥٥) من أبرز من قتل من علماء نيسابور محيي الدين بن يحيى الشافعي، وفي هذا يقول الشاعر:

يا سافكا دم عالم متبحر ... قد طار في أقصى الممالك صيته
بالله قل يا ظلوم ولا تخف ... من كان يحيي الدين كيف تميته؟

ابن الأثير، الكامل، ١١/ ١٨١.

إن مقتل الحجاج بهذه الصورة والتعرض لهم من قبل جند مرتزقة كانوا متجهين إلى طبرستان ثم من قبل جماعات الإسماعيلية يدل على وجود فراغ سياسي وأمني في المشرق، بعد انهيار دولة سلاجقة خراسان والصراع بين الخوارزميين وما تبقى من سلطنة سلاجقة المشرق[٥٦].

إن مقتل الحجاج بهذه الصورة والتعرض لهم من قبل جند مرتزقة يدل على وجود فراغ سياسي وأمني في المشرق

أما التعرض للحجاج بعد سيرهم من بغداد ثم الكوفة وانطلاقهم عبر بوادي جنوب العراق وشمال نجد، فقد تكرر من قبل بعض القبائل العربية. ومن القبائل القريبة من إقليم العراق ذات الشوكة والتي عرفت بتعرضها لمواكب الحجيج بنو خفاجة[٥٧]، الذين اعتدوا على موكب الحج بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ[٥٨]، ووقع منهم الإفساد والتعدي سنة ٥٣٦هـ، وكانت لهم رسوم من التمر والطعام وغير ذلك، فتأخرت في بعض السنوات، فأدى ذلك إلى عبثهم بالأمن في المجال الذي تسير عبره قوافل الحجيج[٥٩].

وقد خرجت جموع من تلك القبيلة على الحاج عند رجوعهم في طريق الحلة سنة ٥٦٢هـ، فقطعوا قطعة من الحاج؛ أي: فصلوها عن بقية القافلة، فأخذوا أموالهم، وقتلوا جماعة[٦٠]، وتعرضت جماعة من الحجاج قرب الحلة العراقية للقتل والنهب من قبل عرب بتلك النواحي سنة ٥٧٤هـ، حيث أخذ أكثر أموالهم، وقتل أعداد

(٥٦) استولى الخوارزميون على ممتلكات السلاجقة في خراسان، أما السلاجقة المعروفون بسلاجقة العراق فقد سارت دولتهم بخطى واسعة نحو الانهيار حتى سقطت تلك الدولة عام ٥٩٠هـ على يد الدولة الخوارزمية، عبدالنعيم حسنين، سلاجقة إيران والعراق، ص ١٣٥.

(٥٧) ينتسب بنو خفاجة إلى بني عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة.

(٥٨) ابن الجوزي، المنتظم في أخبار الملوك والأمم، ١٦/ ٣٠١.

(٥٩) ابن الأثير، الكامل، ١١/ ٢٧٦.

(٦٠) ابن فهد، إتحاف الورى، ٢/ ٥٣٠، ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٨/ ١٧٦.

منهم[٦١]، وازداد تعرض البادية لقوافل الحج في عهد الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ) وما بعده من الخلفاء، فمثلا تعرضت فصائل من عنزة للحاج بقيادة أميرهم دهمش سنة ٥٨٩هـ، فلم يقاتله أمير الحاج بالرغم من وجود (٥٠٠) فارس معه، وأقر لدهمش بأتاوة مقدارها (٥٠,٠٠٠) دينار جمعها من الحجاج، فلما وصل بغداد أمر الخليفة بأخذ المال منه وإرجاعه إلى الحجاج[٦٢]، وتزداد هجمات الأعراب على الحجاج في عهد الخلفاء المتأخرين ففي عام ٦٢٦هـ داهم عرب البطنيين الحجاج في الطريق الكوفي، وعدلوا بهم عن الطريق المسلوك في كل سنة، وطالبوهم بالخفارة، واختطفوا منهم رجالا، ثم تم الصلح بينهم على أن يدفع لهم (١٢,٠٠٠) دينار تسلم إليهم، ثم أرسل الخليفة جمال الدين قشتمر ومعه (٥٠٠٠) فارس، فقصد الأعراب المذكورين فتوجه في ثاني عشر من ذي الحجة إلى الكوفة، ثم رحل إلى لينة، فجاءت الأخبار بأن هؤلاء العرب يترصدون الحاج في حال عودتهم، فسار إليهم وهزمهم، ثم أقام بالثعلبية إلى أن وصل الحجاج عائدين[٦٣].

وبعد ذلك بخمس سنوات عزم عرب من الأجاودة على التعرض للحجاج، فطموا الآبار في منزل (السلمان) في بادية العراق الغربية. ولما بلغت هذه الأخبار أمير الحاج، استفتى الفقهاء في الحملة في الرجوع، فأفتوا بذلك، فرجع بالناس، إلا أن هؤلاء الأعراب لحقوهم وطالبوهم بالأموال وإطلاق سراح محبوسين لهم في بغداد، وأخذوا رهائن من وجوه الحاج على أن يطلقوا، وترددت الرسل بينهم في ذلك، والحجاج نازلون على ماء قليل يصل إلى بعضهم بالقوة والجاه، وتمادت الأيام وتحقق فوات الحج، فعدلوا عن مصالحتهم، وتوجهوا

(٦١) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٨/ ٢٥٢.
(٦٢) بدري محمد فهد، تاريخ أمراء الحج، ص١٨٩.
(٦٣) مؤلف من القرن الثامن الهجري، الحوادث، ص٢١ - ٣٢.

عائدين، فمات منهم خلق كثير ومعظم الجمال، وأحرقوا من أزوادهم وأمتعتهم قبل رحيلهم شيئًا كثيرًا؛ لئلا يؤخذ وينهب من قبل الأعراب[٦٤]، وقد شمل الاعتداء على الحجاج وقطع الطريق عليهم مناطق قريبة من مشاعر الحج وميادينه المباركة، ففي سنة ٥٤٥هـ خرج العرب من زعب[٦٥] ومن انضم إليهم من الحجاج بالغرابي بين مكة والمدينة فأخذوهم، ولم يسلم منهم إلا القليل، وذكر ابن الجوزي أن أعراباً طمعوا بالحجاج بين مكة والمدينة وأن العرب وقفوا في الطريق، وبعثوا يطلبون رسومهم، فقال قايماز أمير الحجاج: المصلحة أن تعطوهم، ونستكفي شرهم، فاستغاثوا عليه، وهددوا بالشكوى إلى سنجر، فخرج عليهم العرب بعد العصر يوم السبت ١٤ المحرم، فقاتلوهم، فكثرت العرب عليهم، فأخذوا من الثياب والأموال والجمال

(٦٤) مؤلف من القرن الثامن الهجري، الحوادث، ص٨٧ – ٨٨. وفي هذه الحادثة سجل الفقيه ابن البطريق (ت ٦٤٢هـ) قصيدته في الأعراب، وفيها مبالغة واستعداء، وقد كتبها إلى الخليفة يحرضه على قتال العرب، ومنها:

الكفر في الترك دون الكفر في العرب ... أليس منهم إذا عدوا أبو لهب
أليس منهم أبو جهل وبنتهم ... عدوة المصطفى حمالة الحطب
فيا إمام الهدى يا خير من نظمت ... له المدائح يا بن السادة النجب
يا أيها القائم المنصور أنت إذا ... حضرت وجه رسول الله لم تغب
فاغز الأعاريب بالأتراك منتقماً ... منهم ولا ترع فيهم حرمة النسب
فقد غزاهم رسول الله في حرم ... الله المنيع بإذن الله وهو نبي
وما رعى فيهم إلاً ولا نسبا ... ولم يقل: إن أمي منهم وأبي
إن ادعوا أنهم قد أسلموا فقد ... ارتدوا بمنعهم للحج عن كثب

المصدر نفسه، ص٨٨ – ٨٩.

ونحن مع ما ذكره المحققان من أن في هذه القصيدة شعوبية واضحة، ولعلها قيلت تحت وطأة التأثر بما حدث للحجاج، وعلى كل فإن جرائم الفساد، وقطع الطريق مدانة بغض النظر عمن صدرت منه، وابن البطريق هو علي بن يحيى بن الحسن الأسدي الحلي الواسطي.

(٦٥) زعب: منسوبة إلى بني سلم (من قيس عيلان من مضر)، وكانت بلادهم مع قومهم بني سليم حول المدينة من جهة الجنوب. حمد الجاسر: جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد، الرياض، دار اليمامة، ١٤٠١هـ، ١/ ٣٠٨.

والأحمال ما لا يحصى، وأخذوا من الدنانير ألوفاً كثيرة، وتقطع الناس، وهربوا على أقدامهم يمشون في البرية، فماتوا من الجوع والعطش والعري، وقيل: إن النساء طلين أجسادهن بالطين لستر العورة، وما وصل قيماز المدينة إلا في نفر قليل(٦٦)، وأقام بعض الحجاج مع العرب حتى توصل إلى بلاده، ويذكر ابن الأثير أن الله تعالى انتصر للحجاج من زعب، فلم يزالوا في نقص وذلة، ولقد رأيت شاباً منهم بالمدينة سنة ٥٧٦هـ وجرى بيني وبينه مفاوضة، قلت له فيها: إنني والله كنت أميل إليك حتى سمعت أنك من زعب؛ فنفرت وخفت شَرَّك، فقال: ولم؟ فقلت: بسبب أخذكم الحاج، فقال لي: أنا لم أدرك ذلك الوقت، وكيف رأيت الله صنع بنا؟ والله ما أفلحنا ولا نجحنا، قل العدد، وطمع فينا العدو(٦٧). ورغم ذلك فقد جاء في بعض المصادر أن زعباً - تلك - قامت بالهجوم على المدينة سنة ٥٧٩هـ؛ فخرج إليهم أمير المدينة فقاتلهم فقتلوه(٦٨)، وفي السنة ذاتها كان الحجاج بعرفات متخوفين من أعراب بني شعبة(٦٩)، كما أن فصائل من هذيل دخلت مكة عام ٥٣٣هـ ونهبوا(٧٠)، مما يدل على تعاظم مركز البادية في الحجاز في ظل انشغال المسلمين في الشام ومصر بمدافعة العدوان الصليبي، وافتقار إمارة الأشراف الهواشم إلى الكفاءة والوعي الحضاري الذي يمكنها من إدارة البلدة المقدسة والمحافظة عليها، وكثيراً ما كان قطع الطريق؛ مما يضطر أمير الحج إلى تغيير مسار الطريق. يذكر ابن الجوزي أنه في موسم حج سنة ٥٥٣هـ، قيل لنا: إن العرب قد قعدوا على الطريق يرصدون الحاج،

(٦٦) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٨ / ٧٦، ابن الأثير، الكامل، ١١/ ١٤٨.
(٦٧) ابن الأثير، الكامل، ١١/ ١٤٩.
(٦٨) المصدر نفسه، ١٢/ ١١٠.
(٦٩) ابن جبير، رحلته، ص١٥٠، ابن فهد، إتحاف الورى، ٢/ ٥٤٩، وبنو شعبة عرب عدنانيون من كنانة، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ١/ ١٥٢، مادة (أدام).
(٧٠) ابن فهد، إتحاف الورى، ٢/ ٥٢١.

فحملنا الدليل إلى خيبر، وكان هؤلاء الأعراب الجهلة بتعاليم الإسلام لا يستثنون أحداً من جرائمهم، فتعرض كثير من العلماء والصلحاء للتشريد والنهب جراء غاراتهم الهوجاء على الحجيج(٧١)، فيذكر عن العلامة سهل بن محمود أبي المعالي البراني (ت ٥٢٤هـ) أنه خرج إلى مكة، فأغار العرب على الحاج، فبقي هو ورفاقه حفاة عراة مشردين حتى وصلوا إلى مكة وقد فاتت الحملة، فجاور بمكة، ثم خرج إلى اليمن، فركب البحر، ومضى إلى كرمان ثم خراسان(٧٢).

وهكذا برزت عمليات قطع الطريق على الحاج في هذه العصور، تماماً كما كانت موجودة من قبل وبشكل لافت أيام القرامطة وغيرهم في القرن الرابع الهجري، وهي جرائم بشعة تندرج ضمن جرائم السعي بالفساد في الأرض، ومحاربة الله ورسوله ﷺ، وينطبق على مرتكبيها ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٧٣).

لقد ارتبطت تلك الجرائم بالبادية، ولعل من عوامل قيام أولئك بقطع الطريق على الحجاج الجدب والقحط، الذي يحل بمنازلهم وانقطاع ما يأتيهم من معونات وأرزاق من قبل الخلافة، وغيرها خاصة البوادي المحيطة بمنازل الطرق العراقية، كما أن انتشار الجهل والأمية وانعدام التفقه في الدين(٧٤) أوجد بيئة خصبة للتوجهات الإجرامية، ومنها قطع الطرق، في ظل ذلك الفراغ الأمني والسياسي الذي كانت تعيشه بقاع الجزيرة العربية نتيجة عدم وجود سلطة مركزية قوية ذات شوكة وهيبة تأخذ على عاتقها حفظ الأمن

(٧١) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٨/ ١٢٦، وأشار إلى هذا في صيد الخاطر حيث أشار إلى خوفه من العرب. ابن الجوزي، صيد الخاطر، جدة، مكتبة العلم، ص١٥٤.

(٧٢) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٧/ ٢٦١.

(٧٣) سورة المائدة، الآية ٣٣.

(٧٤) انظر ما ذكره ابن الجوزي عن البوادي، صيد الخاطر، ص٥٥.

والاستقرار في تلك الربوع، وبدلاً من ذلك كانت القبائل تعيش في دورات من العنف والصراع المدمر الذي استنزف طاقتها، وقوض فيها مقومات حياة الاستقرار والأمان، حيث تولت الزعامات القبلية توجيه حركة هذه القبائل نحو الصراع بينها وممارسة السلب والنهب، ومع أن بعض تلك القبائل امتلك قوة محاربة إلا أنه وفي ظل الخواء الديني الذي تعيشه، توجهت تلك الطاقات نحو الطرق ومراكز الاستقرار ومنازل القبائل الأخرى مستعيدة بذلك نموذج حياة القبائل في الجاهلية، مع أن تلك القبائل القديمة كانت تحترم موسم الحج، كذلك لم تحاول الدول الإسلامية (في العصور الوسيطة) ومنها الخلافة العباسية معالجة الجوانب السلبية التي تفرزها حياة البداوة - ومنها تهديد الطرق - معالجة حضارية بحيث يتم نشر العلم الشرعي بينها، ويتم توطينها في مراكز محدودة، مع إلحاق أبنائها بأجهزة تلك الدول الأمنية والعسكرية، بحكم تميزها قوةً محاربة إلا أن الخلافة وأغلب تلك الدول لم يكن في وعيها أو في فكرها السياسي برامج من هذا القبيل حتى وهي في أحسن حالاتها[٧٥].

والواقع أن مشكلة البداوة مع طرق الحج ظلت تمثل ثغرة في النظم الأمنية القديمة، ومسألة لم تنتبه لها كتب الفكر السياسي سواء المنتج من قبل بعض الفقهاء أو من قبل بعض رجال الإدارة، التي وقف معظمها عند مجرد رسم الحدود النظرية لبعض الوظائف السياسية والإدارية وتقديم الوصايا دون الحديث عن معوقات إنجاز تلك

(٧٥) وحتى وهي في أحوالها الجيدة أقصت الجند العرب مقدمة الجند الأتراك الذين يمثلون البداوة الأعجمية، وقد أهملت الدولة العباسية تربية هؤلاء وتثقيفهم، وتلا نفوذ أولئك الأتراك نفوذ الديلم من آل بويه، وهم أشد تخلفاً من سابقيهم، إضافة إلى تعصب كثير من زعمائهم المذهبي، والحاصل أن الخلافة لم تكن لها سياسة تربوية وتعليمية تجاه معظم العناصر التي احتكرت القوى العسكرية والحربية في العالم الإسلامي، ويرى العمري أن إهمال سياسة التعليم والتربية للعناصر الجديدة أحدث أخطارًا هائلة على المجتمع الإسلامي، والإهمال شمل جزءاً من القبائل العربية التي لم تنجح في اختراق مؤسسة الخلافة كالأتراك والديالمة، أكرم العمري، قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي، قطر، ١٤١٤هـ، ص٧٢ - ٧٣.

الواجبات ودون طرح حلول عملية لتلك المشكلة وما يماثلها، مع الأخذ في الحسبان أن شريحة مهمة من علماء المسلمين اهتموا بنوازل عصرهم وقضايا مجتمعهم، لكن هناك من انشغل بالبحث الكلامي مهملاً القضايا المجتمعية.

الفتن والاضطرابات أثناء موسم الحج:

لقد جعل الله البيت الحرام مثابة للناس وأمناً، كما دعا إبراهيم عليه السلام بالأمن لمكة المكرمة؛ ليؤدي الحجاج عبادتهم في أمن واطمئنان وفي شريعة الإسلام تكرست هذه المنقبة لمكة. ففيما يروى عن رسول الله ﷺ: "إن مكة حرَّمها الله، ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، ولا يعضد بها شجرة"(٧٦)، وقد توعد الله من يريد الإلحاد في البيت الحرام بالعذاب الأليم: ﴿ **وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾(٧٧)، إن من مقاصد ذلك التحريم انتظام حركة الحج، وأن يأمن الحجاج على أنفسهم وأموالهم، وأن يرتدع من يحركهم جشعهم نحو أموال الحجاج وأمتعتهم ومن تسارع نفوسهم لركوب الفتن الهوجاء. لكن تلك الزواجر والنواهي والتشريعات إنما يقف عندها مؤمنون صادقون مشفقون من عذاب الله قادرون على لجم أهواء أنفسهم، يتحكمون في تلك العواطف الهوجاء التي يثيرها دعاة الفتنة والضلال. لقد شهدت مكة في مرحلة الدراسة عدة فتن وقلاقل في مواسم الحج حصدت أرواح العديد من الحجاج، جاءت هذه الوقائع والأحداث مخالفة للمبادئ الإسلامية الواجبة والتي قد يخضعها هذا الطرف أو ذاك للتأويل أو التفسير في بعض الأحوال، لكن الشأن في مكة المكرمة واضح كل الوضوح ولا عذر لأحد في انتهاك حرمتها وارتكاب أعمال الفتن فيها من سفك دم ونهب مال في الموسم.

(٧٦) مسلم، الجامع الصحيح، ٣/ ٩٨٧.

(٧٧) سورة الحج، الآية ٢٥.

ومن الفتن، قيام أمير مكة سنة ٥٣٩هـ بالتضييق على الحجاج وهم يطوفون ويصلون، حيث لم يرقب أصحابه فيهم إلاً ولا ذمة بسبب الخلاف بين الأمير هاشم بن فليته وأمير الحج العراقي[٧٨]، وقد وصف ابن الأثير ما جرى بأنه فتنة عظيمة، لدرجة أن أمير الحاج نظر الخادم، في العام التالي لم يذهب على رأس الحج؛ لأن بينه وبين أمير مكة حروب لا تمكنه من الحج[٧٩]. وفي حج عام ٥٤٤هـ طمع أمير مكة في حجاج المشرق. واستزرى أميرهم قايماز الأرجواني، وربما كان هذا الأمير وراء تسلط العرب عليهم في الطريق[٨٠].

ومن الفتن الدامية التي جرت في مواسم الحج بمكة ومنى، ما جرى في حج عام ٥٥٧هـ حيث لم يتم الحج لأكثر الناس لصدهم عن دخول مكة والسعي والطواف، لفتنة جرت بين أمير الحاج وأمير مكة، وسببها أن جماعة من عبيد مكة أفسدوا في الحاج بمنى، فنفر عليهم بعض أصحاب أمير الحج، فقتلوا جماعة، ورجع من سلم منهم إلى مكة، وجمعوا جمعاً وأغاروا على جمال الحاج، وأخذوا قريباً من ألف جمل، فنادى أمير الحج في جنده، فركبوا بسلاحهم، ووقع القتل بينهم، فقتل جماعة، ونهب جماعة من الحاج وأهل مكة. فرجع أمير الحاج ولم يدخل مكة، ولم يقم بالزاهر غير يوم واحد، وعاد كثير من الناس رجالة لقلة الجمال، ولقوا شدة[٨١] كذلك قامت فتنة وحرب شديدة بين أمير مكة مكثر بن عيسى وأمير الحاج العراقي طاشتكين سنة ٥٧١هـ، وحدث قتال بين بعض الحجاج العراقيين وبعض الأهالي[٨٢]، ومن الفتن ما جرى بسبب عدم التفاهم بين أمراء الحج

(٧٨) ابن فهد، إتحاف الورى، ٢/ ٥٠٨.
(٧٩) ابن الأثير، الكامل، ١٠٣/١٩، ١٠٦
(٨٠) ابن فهد، إتحاف الورى، ٥١١/٢.
(٨١) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٨/ ١٧١، ابن الأثير، الكامل، ١١/ ٢٨٨.
(٨٢) ابن الأثير، الكامل، ١١/ ٤٣٢.

القادمين من العراق والقادمين من الشام...، حيث تنشأ المشكلة في بدايتها عن أمور صغيرة تتعلق بتنظيم حركة الحج ثم يتطور الأمر إلى مخاصمة وسل للسلاح في تلك المواطن والأزمنة الشريفة. ففي عام ٥٨٣هـ حج شمس الدين ابن المقدم، وهو من القادة في دولة صلاح الدين، وقد استأذن أن يحج بعد فتح بيت المقدس؛ ليحرم[٨٣] منها، ويجمع في سنة بين الجهاد والحج وزيارة الخليل عليه السلام وزيارة رسول الله ﷺ فأذن له، وجعل ابن المقدم أميراً على الحج الشامي، ولما وصلوا إلى عرفات سالمين أراد أمير الحج الشامي - ابن المقدم - التقدم عند الإفاضة، فحذره طاشتكين من الرحيل قبله، لكن ابن المقدم قال له: ليس لي معك تعلق، أنت أمير الحج العراقي، وأنا أمير الحج الشامي، وسار دون أن يأخذ في حسبانه ما قاله طاشتكين. وركب أمير الحج العراقي إلى ابن المقدم. وعندها استعد ابن المقدم للقائه، فالتقوا، وقتل من الفريقين جماعة، وخرج الأمر عن الضبط، وعجزوا عن تلافيه، ومما ساعد على انفلات الأمور أنه كان مع العراقيين مجموعات غوغائية غير منضبطة، ضعيفة التهذيب توصف في بعض المصادر (بالغوغاء والبطالين والطماعة)[٨٤].

وفي هذه الأجواء المضطربة هجم طماعة العراقيين على حاج الشام، وفتكوا فيهم، وقتلوا جماعة، ونهبوا أموالهم، وسبيت جماعة من نسائهم، ثم رددن عليهم، وجرح ابن المقدم، وكان يكف أصحابه عن القتال، ولو أذن لهم لانتصف منهم وزاد لكنه راقب الله تعالى

(٨٣) جاء في البخاري، وكره عثمان أن يحرم من خراسان أو كرامان، كتاب الحج، باب قول الله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وورد في شرح ابن حجر أن عثمان رضي الله عنه لام عبدالله بن عامر بن كريز لما أحرم من خراسان، وكان عبدالله قد أحرم من خراسان لما فتحها، وقال: "لأجعلن شكري لله أن أخرج من موضعي هذا محرماً"، وقد كره عثمان رضي الله عنه الإحرام من الموضع المذكور؛ لأنه يستلزم أن يكون قد أحرم في غير أشهر الحج، نظراً لبعد المسافة بين خراسان ومكة. ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، بيروت، دار الفكر، ٣/ ٤٢٠.

(٨٤) ابن الأثير، الكامل، ١١/ ٥٥٩ - ٥٦٠.

مستشعرًا حرمة المكان واليوم، وقد أخذه طاشتكين إلى خيمته، وأنزله عنده؛ ليمرضه، ويستدرك الفارط في حقه، وقد لقي حتفه بمنى جريحاً في يوم عيد النحر(٨٥)، ولا شك أنها حادثة مروعة تكشف عن خلل تنظيمي وإداري، ومن المؤشرات الدالة على ذلك عدم التفاهم المسبق بين الأميرين في شأن من شؤون العبادة وهو الإفاضة من عرفة، واصطحاب طاشتكين أعدادًا كبيرة معه إلى ابن المقدم بمن فيهم تلك العناصر غير المنضبطة من الغوغاء، وربما كانوا قائمين بالأعمال الخدمية من خدم وسقائين وحداة وحملة الأعلام والطبول، ممن تأخذهم العزة بالإثم، وتغلب تصرفاتهم العواطف والأهواء. أيضاً يلحظ أنه لا دور للفقهاء! أهل الشأن في مثل هذه القضايا في حل ذلك الإشكال اليسير في بدايته؛ لتتم النفرة من عرفة بصورة تُراعى فيها الضوابط الشرعية بالدرجة الأولى، ويتم الاتفاق على ما له دلالات سياسية بين الأميرين وجماعة الفقهاء.

ولم ينته مسلسل الفتن بمكة بمجيء أسرة حسنية جديدة للحكم، وهي الأسرة التي استهل عهودها المتعاقبة الشريف قتادة (٥٩٧ - ٦١٧هـ)، فالعلاقة المضطربة بين إمارة مكة والخلافة العباسية في كثير من السنوات تنعكس على الأوضاع الأمنية في موسم الحج، يساعد على ذلك ضعف قادة الحج العراقيين بعد طاشتكين، وتضعضع مكانة الخلافة العباسية، وازدياد الأخطار المحدقة بها، وقد شهدت بعض مواسم الحج فتناً واضطرابات بين قوافل الحج الشرقية وأتباع الشريف قتادة. ومنها ما جرى بمنى سنة ٦٠٧هـ بين العراقيين وأهل مكة من أتباع الشريف(٨٦)، وكذلك وقعت في السنة التالية فتنة عظيمة يوم النحر بين الفئتين، قتل فيها الحجاج

(٨٥) المصدر نفسه، ١١/ ٥٥٩ - ٥٦٠.

(٨٦) ابن فهد، إتحاف الورى، ٣/ ١٠، الجزيري، درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، القاهرة، المطبعة السلفية، ص٢٦٨.

العراقيون، ونهبوا نهباً ذريعاً. وكان معظم الفتنة بمنى، وقد كان سببها أن أحد الإسماعيلية من أهل العراق وثب على ابن عم قتادة، فقتله عند الجمرة، فلما سمع بذلك قتادة قال: لا أبقيت من حجاج العراق أحداً، ما كان المقصود إلا أنا. واتهم أمير الركب بذلك، وتداعت الأحداث بعد هذا، حيث لجأ قائد الحج العراقي وأتباعه إلى منزل الحاج الشامي، واستجاروا بهم، فأجارتهم أخت العادل الأيوبي ربيعة خاتون، وكانت مع الحاج الشامي، وأرسلت إلى قتادة تدعوه إلى ترك استحلال الدماء والأموال في الشهر الحرام والبلد الحرام، وأقام الناس ثلاثة أيام حول خيمة ربيعة خاتون بين قتيل وجريح ومسلوب وجائع وعريان(٨٧).

وفي حج سنة ٦١٧هـ شهد الحج فصلاً من فصول الفتن والاضطرابات في غمرة النزاع بين الحسن وراجح ولدي قتادة على الحكم ودخول أمير الحج العراقي طرفاً في ذلك النزاع، وقد هزم عسكر أمير الحاج أقباش، وقتل، وعلق رأسه، وقيل: إنه نصب بالمسعى. وقد أمن الحسن بن قتادة الحجاج العراقيين بعد ذلك، فأقاموا بمكة عشرة أيام، وعادوا، فوصلوا إلى العراق، وعظم الأمر على الخليفة، فوصلت الرسل من مكة إلى دار الخليفة تتضمن الاعتذار وطلب العفو(٨٨). وفي أواخر عهد الناصر العباسي (٥٧٥ - ٦٢٢هـ) ذهب وهج الخلافة، وضعف دورها في مكة، وبرزت قوى جديدة في اليمن والشام ومصر كان لها الأثر الأكبر في الشأن السياسي بمكة، ومع ذلك ظلت الفتن تطل برأسها بين الفينة والأخرى.

لقد كان لأمراء مكة دور في إثارة جزء من هذه الفتن، كذلك كان للخلافات بين أولئك الأمراء وقادة الحج العراقيين دور في تصعيد

(٨٧) الفاسي، شفاء الغرام، ٢/ ٢٣٢، ابن فهد، إتحاف الورى، ٣/ ١٢.

(٨٨) ابن الأثير، الكامل، ١٢/ ٤٠٢، الفاسي، العقد الثمين ٥/ ٣٢٣، ابن فهد، إتحاف الورى، ٣/ ٢٩ - ٣٠.

الاضطرابات وتأجيج الصراعات في البلدة المقدسة، كما شكلت تعديات عبيد مكة على الحجاج عاملاً مصعداً لهذه الفتن الدامية كما حدث سنة ٥٥٧هـ. أيضاً يمكن القول بأن الحجاج العراقيين والمشرقيين قد حملوا معهم غوغائيين و(بطالين)[٨٩] لديهم القابلية العالية للاستجابة لأي نزعة طائشة أو فتنة مثارة، وأحياناً كان مع أولئك الحجاج أفراد من بعض الطوائف بهدف إثارة الفتن وتسخين الأجواء في حرم الله الآمن كما حدث في موسم ٦٠٨هـ.

كما أن إدارة حملة الحج من الجانب العراقي – في بعض الأحيان – ركزت على استعراض القوة ومحاولة إذلال بعض الفئات في مكة؛ مما يولد مشاعر العداء ويوغر الصدور. وقد لحظ بعض الفقهاء تلك الروح الاستعراضية؛ يذكر ابن عقيل الحنبلي (ت ٥١٣هـ) تعليقاً على دخول أمير الجيوش (يمن الخادم أمير الحج) مكة قاهراً لأميرها مذلا له: "حكى أمير الجيوش أنه دخل إلى مكة بخفق الجنود وضرب الكوسات[٩٠]؛ ليذل السودان وأميرهم، وحاكاها لي متبجحاً ذاهلا عن حرمة المكان، فسمعته منه متعجباً، وقلت: انظر إلى جهل هذا الحبشي، ولم ينبه أحد ممن كان معه من عالم بالشرع أو بالسير، وذكرت قول الصحابة رضي الله عنهم: خلأت القصواء، فقال رسول الله ﷺ بل حبسها حابس الفيل[٩١]، فلما أعطاهم ما أرادوا، أطلقت ناقته، وقد صين المسجد عن إنشاد الضالة فكيف بحبشي يجيء بدباب؟"[٩٢].

(٨٩) ابن فهد، إتحاف الورى، ٣/ ١٢.

(٩٠) الكوس: الطبل، (مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي)، القاموس المحيط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٧هـ، ص٧٣٧.

(٩١) الحديث أخرجه البخاري وغيره، ومما جاء فيه قول النبي ﷺ: "ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل". الجامع الصحيح، كتاب الشروط في الجهاد. ابن حجر، فتح الباري، ٥/ ٣٢٩.

(٩٢) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٧/ ١٤٦، ابن فهد، إتحاف الورى، ٢/ ٤٩٤، ولسبط ابن الجوزي تعقيب على كلام ابن عقيل، فقد ذكر أن هذا الجيش دخل مكة معظماً؛ لأن أميرها والسودان كانا عصاة لا يرون إمامة العباسيين...، انظر: ابن فهد، إتحاف الورى، ٢/ ٤٩٥.

ومما له دور في إثارة الفتن التي تزهق بسببها أرواح الحجاج، وتذهب أموالهم الدوافع المادية والأطماع - عند بعض الفئات الاجتماعية في مكة - لما يترتب على تلك الفتن من السلب والنهب، وكذلك الأوضاع الداخلية المضطربة لحكومة مكة في عهد الأشراف الهواشم والقتاديين ومع وجود عهود نعمت فيها مكة بالأمن، إلا أن طابع عدم الاستقرار وانتظام تداول الحكم كان غالباً. لقد أصبحت تلك الحكومات المكية قريبة الشبه بالإمارات القبلية التي تأسست على الصراع والتصفية، والتصرفات الهوجاء، وهذا لم يقع حتى في عهد سيادة قريش على الكعبة، حيث كانت الخلافات والمنافسات تحل عن طريق التحكيم أو الرجوع إلى الكهان، حيث يقرر أولئك تسوية غالباً ما يرضى بها أولئك المتنافسون[٩٣]. كما كانت مكة تعمد في اقتصادها ومواردها على إمكاناتها الذاتية وكفاءة رجالها.

تعرض الحجاج لنقص المياه والأزمات الغذائية:

يعد التعرض لأزمة غذائية ونقص في المياه أو فقدانها من التحديات التي تواجه الحاج، حيث تصبح حياتهم مهددة، كما أن الدواب التي تحمل الحجاج هي الأخرى بحاجة إلى إعلاف ومياه - قد لا تتوافر في الصحراء في حالات الجدب والقحط - إن لعوامل المناخ أثرها في وجود المياه والمراعي الخصبة، وقد تقل الأمطار وتنعدم المياه في بعض السنوات؛ مما يعرض الحجاج للتلف والهلاك، وقد حدث أن عادت جموع الحجاج من الكوفة إلى ديارها بعد أن أبلغوا بعدم توافر المياه كما في موسم ٥٠٤هـ[٩٤]. وقد يرجع نقص المياه وعدم توافره للحجاج إلى الاستبداد بالمياه الموجودة في المناهل من جانب بعض كبار رجال الحملة.

(٩٣) ابن حبيب، المنمق في أخبار قريش، تحقيق خورشيد أحمد، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٥هـ، ص٩٠، ٩٧.

(٩٤) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٧/ ١٢١.

تذكر بعض المصادر التاريخية أنه عند حج (صدر جهان البخاري) صاحب بخارى سنة ٦٠٣هـ، استبد بالماء، فكان غلمانه يسبقون الناس إليه، فيقومون إلى المناهل، فيحجزون الماء لصاحبهم وأتباعه، ويأخذونه، ويرشون ما حول خيمته في قيظ الحجاز، ويمنعون منه أبناء السبيل الآمين البيت الحرام، ونتج عن تلك التصرفات هلاك أعداد من الحجاج، وقد ورد أنه مات نحو من (٦٠٠٠) من الحجيج، هذه السنة نتيجة تضييقه على الناس في المياه والميرة[٩٥]. ومن السنوات التي واجه فيها الحجاج قلة الماء والعطش الشديد أعوام ٥٠٤هـ و ٥٠٦هـ و ٥٤١هـ، حيث غارت المياه من الآبار وكذلك عام ٥٤٢هـ[٩٦]. وفي سنة ٦٥١هـ جاء إلى الحج عالمٌ كبيرٌ من البر والبحر لم يسمع بمثله، فيما مضى وحصل للناس في أيام الموسم عطش شديد، وكانت الوقفة يوم الجمعة، ومات فيها كثير من جمال الحاج، وبيعت الشربة من الماء بدرهم[٩٧].

واجهت الحجاج أزمات غذائية وتموينية كما في موسم حج ٥٥٩هـ، حيث لقوا شدة، وهلك خلق منهم بالبرية جراء القحط والوباء[٩٨]. ويذكر ابن الأثير أنه عدم ما يقتات، ووقع الوباء في البادية[٩٩]. كما وقع جوع وغلاء وتلف للجمال والمشاة في طريق الحاج إلى العراق في مستهل سنة ٥٧٣هـ وهم عائدون من موسم الحج[١٠٠].

ومن الأزمات ما نتج عن عوامل سياسية كما في عام ٥١٤هـ حينما انقطعت الميرة عن مكة من مصر بسبب قرار اتخذه الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش حيث منع الناس - من مصر - أن يحجوا وقطع

(٩٥) ابن الأثير، الكامل، ١٢/ ٢٥٦، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٦/ ٧٥٤.
(٩٦) ابن فهد، إتحاف الورى، ٢/ ٤٩٣، ٥١٠.
(٩٧) الجزيري، درر الفوائد، أحداث عام ٦٥١هـ، ص٢٧٨.
(٩٨) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٨/ ١٦٢.
(٩٩) ابن الأثير، الكامل، ١١/ ٣٥.
(١٠٠) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٨/ ٢٣٥.

الميرة عن الحجاز، فارتفعت الأسعار، وذلك كرد فعل على قيام أمير مكة أبي محمد قاسم بن محمد بن أبي هاشم بالغارة على مراكب التجار في عيذاب، فرفعوا الشكوى إلى الأفضل[١٠١]. كذلك وقع في عام ٥٦٩هـ زيادة باهظة في الأسعار أكل الناس خلاله الدم والجلود والعظام، ومات أكثر الناس، لكن الله فرج عن الناس بصدقات وصلات لأهل الحرمين من المستضيء بالله العباسي (٥٦٦ - ٥٧٥هـ)[١٠٢]. ويتكرر حدوث ارتفاع الأسعار في بعض السنوات، مما يعني عدم الاستقرار المعيشي، وتمر سنوات قحط ينال فيها أهل مكة ضررًا وجهدًا، ويؤدي ذلك في أحوال كثيرة إلى زيادة الأسعار وهلاك المواشي[١٠٣]. وبجانب هذه الصور التي تمثل تحدياً أمنياً يمس أوضاع الناس المعيشية بمن فيهم الحجاج والعمار - هناك صور إيجابية للأوضاع التموينية والغذائية، ومنها ما نقله لنا الرحالة ابن جبير (ت ٦١٤هـ) عن الأوضاع التموينية والغذائية في مكة خلال موسم ٥٧٩هـ[١٠٤].

حيث ذكر أن مكة تميزت هذا العام بكثرة نعمها ولين سعرها، وأن ذلك الوضع جاء مخالفاً للعوائد السالفة عندهم، وأشار إلى ما خصت به من الخيرات والبركات، ورأى أن قدوم الميرة من أهل السراة الذين يرغدون معايش أهل البلد من أسباب ارتفاع شظف العيش عن مكة؛ ولذلك فإن أهل مكة كانوا يستبشرون بقدومهم استبشارًا كثيراً، حتى إنهم أقاموه عوض نزول المطر.

تهديد الأمن العقدي والفكري للحجاج:

إن مما يشمله مفهوم الأمن بمدلوله الواسع أمن عقائد الحجاج المسلمين بحمايتها من الغلو والبدعة ومن الانحراف المؤدي إلى إثارة

(١٠١) الفاسي، العقد الثمين، ٧/ ٢٩، ابن فهد، إتحاف الورى، ٢/ ٤٩٧.
(١٠٢) الفاسي، شفاء الغرام، ٢/ ٤٣١ - ٤٣٢.
(١٠٣) ابن فهد، إتحاف الورى، ٢/ ٥٤٧.
(١٠٤) رحلة ابن جبير، ص٩٦، ١٠٠، ١١٠، ١٤٠.

الفتنة وإباحة دماء المسلمين الآمنين، لقد كانت المخاطر على عقائد المسلمين في موسم الحج ودروبه في القرنين الرابع والخامس الهجريين قائمة وواضحة بوجود النفوذ الفاطمي في الحجاز وبحكم نشاط القرامطة في الجزيرة العربية واعتدائهم على البيت الحرام.

فلقد جرى أيام القرامطة والفاطميين وقائع وأحداث حملت استهتاراً برموز مادية وبشرية إسلامية كالاعتداء على الحجر الأسود سنة ٤١٣هـ[١٠٥] إضافة إلى سابقة القرامطة في سرقته عام ٣١٧هـ[١٠٦]، والتعرض لكبار الصحابة - رضوان الله عليهم - وبعض أزواج النبي ﷺ[١٠٧]، وجرى توظيف خطب الموسم الشريف لعدد من السنوات لأغراض مذهبية وسياسية وللترويج للبدع الكبرى، ومورس نشاط هدام يرمي إلى إشاعة البدع، كل ذلك جرى أثناء هيمنة الفاطميين على الحرمين.

ولقد تحسنت الأجواء الفكرية والعلمية المصاحبة لحركة الحج، خلال القرن السادس الهجري، وتحقق قدر من الأمان الفكري والعقدي للحجاج بوجود ثلة العلماء والأئمة في الموسم، حيث كانوا يؤدون دورهم التوجيهي والتعليمي مع وجود معوقات وقفت في طريق بعضهم[١٠٨]. ومع غياب بعض المقومات الأساسية لتحقيق الأمن الفكري والعقدي انتشرت بعض البدع والشائعات بين الحجاج ومعظمهم من الأميين والعوام. إن من تلك المقومات الأمر بالمعروف

(١٠٥) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان السنوات (٣٤٥ - ٤٤٧هـ)، ص٣٢٦، ضرب الحجر الأسود بدبوس أطارت منه شظايا في حج ذلك العام ثالث أيام النحر، البكري، جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك، ص ٨٠.

(١٠٦) ابن الأثير، الكامل، ٨/ ٢٠٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٥/ ٣٧.

(١٠٧) أرسل الحاكم العبيدي كتاباً يتضمن ذلك؛ ليقرأ في المسجد الحرام لكن ذلك لم يتم، ابن فهد، إتحاف الورى، ٢/ ٤٣١.

(١٠٨) في عهد الشريف قتادة في سنة ٦٠٦هـ قتل إمام الحنفية وإمام الشافعية بمكة، ونسب ذلك إلى قتادة نفسه، ابن فهد، إتحاف الورى، ٣/ ٩.

والنهي عن المنكر، حيث تشير بعض الدراسات إلى ضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في دار النسك وموطن المشاعر، حيث اقتصر العلماء على التعليم والحديث دون القيام بهذه الوظيفة العظيمة(١٠٩)، انتشر عند بعض الحجاج بدع وخلل حتى في العبادة الواجبة، فابن الجوزي وهو ممن حج مع الركب العراقي عامي ٥٤١، ٥٥٣هـ أشار إلى بعض الممارسات التي تحتاج إلى توجيه وإرشاد عند بعض الحجاج، فيذكر أنهم يضيعون الصلوات، ويطففون إذا باعوا، ويظنون أن الحج يدفع عنهم، وهناك من يتصنع في إحرامه، ويبقون في الشمس أياماً، فتتكشط جلودهم، وتنتفخ رؤوسهم، ويتزينون بذلك بين الناس(١١٠).

وأشار ابن جبير إلى صلاة الأعراب من السراة يقول عنها: "لم يذكر في مضحكات الأعراب أظرف منها، يسجدون دون ركوع وينقرون بالسجود نقراً، ويلتفتون يميناً وشمالاً التفات المروع، ثم يسلمون أو يقومون دون تسليم أو تشهد"(١١١).

ولحظ ابن جبير تعدد الأئمة في الحرم المكي وما يحدث من فوضى أثناء أداء صلاة المغرب؛ لأنها تصلى في وقت واحد، "فربما ركع المالكي بركوع الشافعي أو الحنفي أو سلم أحدهم بغير سلام إمامه"(١١٢). وقد أنكر بعض الأئمة ذلك في حج سنة ٥٥١هـ(١١٣).

---

(١٠٩) عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدراً من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين - دراسة تحليلية مقارنة، الرياض، مطبوعات مكتبة الملك فهد، ١٤١٧هـ، ص٢١٥ - ٢١٦.

(١١٠) ابن الجوزي، تلبيس إبليس، بيروت، دار الوعي، ١٤١٥هـ، ص١٦٢، ومع الأخذ في الحسبان ما ذكره ابن الجوزي بأسلوبه الوعظي الأدبي، إلا أن مسائل النيات علمها عند الله تعالى.

(١١١) ابن جبير، رحلته، ١١٢.

(١١٢) المصدر نفسه، ٧٨ - ٧٩.

(١١٣) ابن فهد، إتحاف الورى، ٢/ ٥١٨، وقد أفتى الإمام أبو القاسم عبدالرحمن بن الحسين المالكي بمنع الصلاة لأئمة عدة وجماعات مرتبة بحرم الله الشريف وعدم جوازها على مذاهب العلماء الأربعة، المصدر نفسه، ٢/ ٥١٦.

وواضح أن هذه الظاهرة مدعاة لتكريس روح التعصب في نفوس العامة والأميين؛ مما يعطل مفهوم الأمة الواحدة، ويكرس روح الانقسام والفوضى، وينافي الخشوع المطلوب في العبادة. وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من مقومات تحقيق الأمن الفكري والعقدي، فإن من أبرز مقوماته الأخرى أن تقوم حركة علمية نشطة تنشر الوعي الديني بين المسلمين، وتنشط ميدانياً في الموسم ودروب الحج ومنازل الحجيج؛ فتعلم الجاهل، وترشد الضال، وتخفف من روح التعصب للمذهب أو الإقليم، تلك الروح التي استشرت في حقبة الدراسة(١١٤)، والواقع أن جهل أولئك الحجاج وأميتهم من مصادر تهديد الأمن الفكري والعقدي للمسلمين عامة، حيث تستغلهم التيارات البدعية الضالة، وتجد فيهم مادة فارغة تملؤها بالشبهة والأباطيل(١١٥).

واضح أن هذه الظاهرة مدعاة لتكريس روح التعصب في نفوس العامة والأميين

مخاطر أخرى على أمن الحجاج:

وثمة مخاطر أخرى يواجهها الحجاج بصورة عامة، ومنها الأوبئة التي تنتشر في دروب الحج ومنازله في بعض السنين. ومنها الوباء الذي وقع سنة ٥٦٠هـ، قال ابن الأثير في أحداث تلك السنة: "لم يمض الحاج إلى مدينة النبي ﷺ لهذه الأسباب، ولشدة الغلاء فيها، وعدم ما يقتات، ووقع الوباء في البادية، وهلك منهم عدد لا يحصون، وهلكت مواشيهم"(١١٦). وذكر ابن الجوزي ما يفهم منه أن سبب انقطاع الحجاج في فيد والثعلبية وواقصة يعود لتعذر الظهر أي الدواب التي تحمل الحجاج(١١٧). ومعلوم أن الحجاج في هذه المنازل

(١١٤) الغزالي، إحياء علوم الدين، ١/ ٤٠.

(١١٥) أورد ابن الأثير قول أحد وزراء السلاجقة عن الحسن بن الصباح: "عما قريب يضل هذا الرجل ضعفاء العوام"، الكامل، ١٠/ ٣١٧.

(١١٦) المصدر نفسه، ١١/ ٣٢٠.

(١١٧) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٨/ ١٦٢.

يتعاملون مع البادية، ويحتكون بها، ويشترون منها دواب جديدة، ويستبدلون ما ضعف وهزل من الدواب، ومن هنا فإن حلول الوباء بين البدو يضر بالحجاج، ويسبب لهم الانقطاع في البرية، كما يفهم مما ذكره ابن الجوزي وابن الأثير.

ومن تلك المخاطر الازدحام في الطواف والسعي، وعند دخول مكة وحول موارد المياه، وقد جاء في بعض المصادر أنه عندما تفتح الكعبة مدة مقام الحجاج، يقع الازدحام، ويتسلق بعضهم على رقاب البعض؛ لأن الباب مرتفع عن الأرض بنحو قامة رجل، فيقع بعضهم على رقاب بعض، فيموت بعض، وينكسر بعض، ويشج بعض[١١٨]، وقد مات في سنة ٥٣١هـ أربع وثلاثون نفساً في الكعبة من الزحام، كما مات مجموعة من الحجاج للسبب نفسه سنة ٥٨١هـ[١١٩]، وسقطت جماعة من الحجاج بالمسعى موتى سنة ٦١٩هـ لكثرة الناس وازدحامهم[١٢٠].

ويحدث نتيجة التدافع والازدحام عند موارد المياه مخاطر على حياة الحجاج، وقد رأى ابن جبير في منهل الثعلبية في الطريق[١٢١] إلى الكوفة من المدينة هلاك سبعة ضغطاً بسبب الازدحام[١٢٢]، ويذكر ابن الجوزي أنه رأى في طريق مكة من يضرب رفاقه على الماء، ويضايقهم في الطريق، ولا يرجع ذلك الازدحام والتدافع فقط لقصور الإجراءات التنظيمية، وإنما يعود جزء كبير منه خاصة عند باب الكعبة والحجر الأسود إلى اندفاع الحجاج، وعدم ترويهم، وإصرارهم على أداء بعض المستحبات أو المسنونات حتى في الحال التي ينتج عنها ضرر بالنفس والآخرين، وكل ذلك يمثل إعراضاً عن

(١١٨) الفاسي، شفاء الغرام، ٢/ ٣٧٧.
(١١٩) ابن فهد، إتحاف الورى، ٢/ ٥٠٥، ٥٥٤.
(١٢٠) الفاسي، شفاء الغرام، ٢/ ٣٧٥.
(١٢١) رحلة ابن جبير، ص١٨٤.
(١٢٢) ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص١٦٢.

وصية النبي ﷺ للناس يوم عرفة فإن مما أوصى به الناس السكينة لما سمع زجراً شديداً وضرباً للإبل(١٢٣).

وهناك الجرائم العديدة الجنائية، ومنها السرقة كما جاء عن ذلك الرجل الذي سرق جمله وعليه جهازه(١٢٤)، وأشار ابن جبير إلى المتلصصين على الحجاج من فئة الحرابة(١٢٥) المختلسين ما بأيديهم الذين كانوا آفة الحرام لا يغفل أحد عن متاعه طرفة عين إلا اختلس من يديه أو من وسطه بحيل عجيبة(١٢٦).

وتشكل المكوس والضرائب شأناً مقلقاً لحركة الحج والتجارة المصاحبة لها، وقد حدثت مبالغة في استحصالها - في بعض السنوات - بل وارتكبت أعمال شبيهة بأعمال اللصوص من قبل بعض من تولى إدارة مكة المكرمة في سبيل تحصيل الرسوم والضرائب، كنهب مراكب التجار من قبل قاسم بن محمد، ومصادرة المجاورين سنة ٥٥٦هـ(١٢٧) وفيهم نسبة كبيرة من حجاج المشرق وتجاره، ومن ذلك إغلاق أبواب مكة عام ٦٤٨هـ، ومنع الناس من الخروج، حيث إن أبا سعد الحسن بن علي بن قتادة أخذ من كل رجل دينارًا عن نفسه ودينارًا عن جمله(١٢٨)،

(١٢٣) نص الحديث: "أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس بالإيضاع"، والإيضاع حمل الدابة على العدو السريع، وأيضاً جاء قوله ﷺ: "أيها الناس السكينة السكينة"، والحديث الأول أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما، والحديث الثاني أخرجه مسلم وأبو داود، انظر الحسين بن مسعود البغوي: شرح السنة، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٢هـ، ٤/ ٩٦ - ٩٧.

(١٢٤) انظر، حمد الجاسر، أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع، الرياض، دار اليمامة، ١٣٨٨هـ، ص١٤٧. التعليقات والنوادر عن أبي علي الهجري، الرياض، دار اليمامة، ١٤١٣هـ، ١/ ٨٥.

(١٢٥) الحرابة، أتباع الأمير مكثر بن عيسى الحسني، وهم حاملو الحراب من الأعراب. انظر، عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية، ص١٤٦.

(١٢٦) رحلة ابن جبير، ص١٠٠.

(١٢٧) ابن فهد، إتحاف الورى، ٢/ ٣٩٦، ٥٢٣، وانظر ما فعله داود بن عيسى سنة ٥٨٦هـ، المصدر نفسه ٢/ ٥٥٩.

(١٢٨) مؤلف مجهول، الحوادث، ص٢٩٧.

وتلك الضرائب والمكوس الجائرة تزداد حتى تثقل كاهل الحجاج، خاصة عندما لا تصل الأعطيات إلى أمراء مكة من الأقاليم الإسلامية بانتظام، وكان لصلاح الدين - رحمه الله - أثر في رفعها عن الحجاج في عهد الأمير مكثر بن عيسى(١٢٩).

جهود مواجهة المخاطر الأمنية:

ثمة جهود بذلت لمواجهة المخاطر الأمنية التي يتعرض لها الحجاج عامة، والتهديدات المحيطة بحركة الحج من المشرق إلى مكة، ومن تلك الجهود إعادة الفاعلية لمنصب أمير الحج، واختيار قائد عسكري لتولي مهمة تسيير الحجاج(١٣٠)، حيث اشترط فيمن يتولى تلك المهمة القيادية الأمنية مواصفات قيادية وقدرات تتناسب والدور الذي يلقى على عاتقه، وكذلك اشترط فيه أن يكون مطاعاً ذا رأي وشجاعة وهيبة وهداية، ومما يطلب منه أن يرتاد لهم المياه، وأن يحرسهم إذا نزلوا، ويحوطهم إذا رحلوا حتى لا يتخطفهم داعر، ولا يطمع فيهم متلصص(١٣١)، والمتأمل في الترتيبات الإدارية المواكبة للحملة يلحظ بشكل جلي أنها تقصدت حماية أمن الحجيج في أغلب الأحوال، حيث تسير الحملة بشكل جماعي مرتب، ويرسل من يتفقد الآبار والبرك في الطريق(١٣٢)، فيصلحها كما كان لحجاج كل مدينة أمير(١٣٣)، ويراعي أمير الحاج أن يدخل المراكز المعمورة بالسكان الأعراب على تعبئة وأهبة إرهاباً للمتجمعين به من الأعراب؛ لئلا

(١٢٩) ابن جبير، رحلته، ص٥٤، وقد جعل صلاح الدين له بدلاً من مكس الحاج مبلغاً معلوماً من المال مع كميات من القمح، ص٥٤ - ٥٥.

(١٣٠) يقسم الماوردي ولاية الحج إلى ضربين: أحدهما أن يكون على تسيير الحجيج، والثاني على إقامة الحج، فالأول ولاية سياسية، والثاني يكون المولى فيها بمنزلة الإمام في إقامة الصلوات. الأحكام السلطانية، ص١٠٨ - ١١٠.

(١٣١) المصدر نفسه، ص١٠٨.

(١٣٢) مؤلف مجهول، الحوادث، ص ٢٠٢.

(١٣٣) ابن الأثير، الكامل، ١٢/ ١٣١.

يداخلهم الطمع في الحاج، وقد فعل ذلك الأمير طاشتكين عند العودة من حج سنة ٥٧٩هـ حال نزول الحجاج العائدين بلدة فيد[١٣٤] (جنوب شرق مدينة حائل).

وكإجراء وقائي يقوم المسؤولون عن الحج في بغداد بإبلاغ الحجاج في حال قلة المياه في الطريق وانعدام العشب؛ لئلا يسبب ذلك تلفهم وهلاك دوابهم[١٣٥].

وللأعمال الخيرية - التي قام بها خلفاء ووزراء وأعيان والموجهة نحو خدمة الحجيج - أثرها في تلبية جزء من الاحتياجات الأمنية لحركة الحج وللحجاج بشكل عام، حيث أمن أهل الخير والإحسان - في بعض المواسم - المياه، ووزعوا الأطعمة والصدقات، ووفروا الأدوية، ويعد ذلك إسهاماً في توفير متطلبات الأمن الغذائي والمائي والصحي، فعلى سبيل المثال قام الوزير العباسي محمد بن هبة الله بن المسلمة (ت ٥٧٣هـ) بتقديم (١٠٠) جمل للمنقطعين، وأخرج الأدوية ومن يطبب المرضى من الحجاج، واستصحب جماعة من أهل الخير والعلم[١٣٦]، وكان لأم الخليفة الناصر زمرد خاتون جهود في عمارة مصانع طريق الحجاز - وهي برك وأحواض تحفظ المياه في الطريق - كما أصلحت الطرقات[١٣٧].

ويبرز في مجال تأمين المياه للحجاج وإطعام الفقراء من الحجاج وساكني الحرمين الوزير الجواد الأصبهاني (ت ٥٥٩هـ)، فقد عمل بعرفات مصانع للمياه أجرى إليها الماء من نعمان في طرق معمولة

(١٣٤) ابن جبير، رحلته، ص١٨٣.

(١٣٥) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٨/ ٢٥٢.

(١٣٦) المصدر نفسه، ١٨/ ٢٤٠، والوزير محمد بن عبد الله من وزراء الخلافة العباسية في عهد المستضيء قتل على يد الباطنية، وكان قد عزم على الخروج للحج، المصدر نفسه، ١٨/ ٢٤٦، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٦/ ٥٢٥.

(١٣٧) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٦/ ٧٢٧، وقيل: إنه لم تحج أم خليفة في حياته إلا هي وأرجوان أم المقتدي، وزبيدة أم الأمين. ابن فهد، إتحاف الورى، ٢/ ٥٥٨.

تحت الأرض[١٣٨]، وله رباع بمكة مسبلة في طرق الخير والبر، وقد عني بطرق المسلمين بجهة المشرق من العراق إلى الشام إلى الحجاز[١٣٩].

وثمة أعمال خيرية تأتي في هذا الإطار، وهي كما قلنا تلبي جزءاً من احتياجات الحجاج الأمنية، وهي أعمال وجهود لا شك في نفعيتها وأثرها في التخفيف عن معاناة الحجاج، وهم يواجهون تحديات أمنية كبيرة، وقد ظل أغلبها جهودًا فردية ومبادرات إحسانية ترتبط - في حالات كثيرة - بمدى اهتمام ذلك الحاكم وهذا الوزير وهمة أهل الخير والإحسان.

الخاتمة

تناول البحث أمن حركة الحجاج من المشرق الإسلامي إلى مكة المكرمة في العصور العباسية المتأخرة، مركزاً على دراسة أشكال التهديد التي تعرضت لها تلك الحركة في الحقبة التاريخية محل الدراسة ويمكن إجمال النتائج في النقاط الآتية:

كان للخلافة العباسية أثر واضح في تنظيم حركة الحج ورعايتها إلى مكة خلال القرن السادس الهجري، وكذلك خلال ما تبقى من عهد الناصر وفي بعض السنوات من عهود الخلفاء بعده ضمت قوافل الحجيج المشرقية علماء لهم أثرهم في الحياة العلمية الإسلامية، كما أسهم وجودهم في إيجاد أجواء علمية داعمة للمذاهب الإسلامية المعروفة بوسطيتها واعتدالها.

برزت أمام حركة الحج المشرقية تحديات ومخاطر أمنية، أبرزها جرائم قطع الطريق والفتن والاضطرابات خلال بعض المواسم، إلى جانب أزمة ندرة المياه في طرق الحج، وكذلك الأزمات الغذائية

(١٣٨) ابن الأثير، الكامل، ١١/ ٣٠٨.

(١٣٩) ابن جبير، رحلته، ص١٠٤.

والتموينية في بعض السنوات، وتعرض حجاج المشرق للتهديد والاعتداء قبل وصولهم إلى بغداد من قبل قطاع الطرق وبعض الفئات التي مارست العدوان على الحجاج.

شكلت البوادي العربية مصدراً من مصادر التهديد لأمن الحجاج المشارقة نتيجة الفراغ السياسي والأمني في الجزيرة العربية، وعدم وجود حكم مركزي قوي يتولى ضبط ومعالجة أوضاع البادية، إلى جانب عوامل أخرى صعدت من عمليات التهديد والإخافة التي مارسها أولئك القوم ضد قوافل الحج.

ثمة جهود بذلت لمواجهة التهديدات المحيطة بحركة الحج والمخاطر التي تواجهها قوافل الحجيج في الدروب والمنازل، ومن أبرزها تفعيل دور إمارة الحج واختيار قادة عسكريين لهذه المهمة، وقد برز الأمير طاشتكين أحد الأمراء والقادة المتميزين في قيادة حملات الحج، كما كانت هناك أعمال خيرية لها أثرها في تلبية جزء من متطلبات تحقيق أمن حركة الحج وأمن الحجاج بصفة عامة.

رحم الله أولئك العباد الوافدين إلى بيت الله العتيق، وجعل ما نالهم وأصابهم في سبيل أداء حجهم مما تثقل به موازينهم، وترفع به درجاتهم عند رب العباد، وتقبل الله من حجاج المسلمين في شتى الأزمنة والعصور نسكهم، ومنّ علينا وعليهم بالتوبة والمغفرة.